الفصل السابع

استراتيجية الإسلام فى التغيير الاجتماعى

التربية الاسلامية بداية أساسية للتغيير

دور التربية فى بناء المجتمع الاسلامى :

إن أى تصور لأى بناء اجتماعى لأى مجتمع ؛ وفى أى عصر ؛ يصحبه بالضرورة تصور لبنية التربية وأهدافها ووسائلها ، وللمعلم الذى سيعهد إليه مهمة تجسيدها . هذا إذا كان التصور الاجتماعى ينشد التجسيد الواقعى فى حياة هذا المجتمع . كما أن التصور التربوى لابد — إذا أراد نجاحاً أكيداً — أن يستند إلى تصور اجتماعى تراعى فيه خصائص «الإنسان» وخصائص « النظم الاجتماعية » ؛ وطبيعتها التى تنبثق من وجودها . بحيث يستند هذا التصور الاجتماعى نفسه إلى تصور واضح لمفهوم الإنسان وطبيعته ؛ ومفهـوم المجتمع بنظمه الاجتماعية ؛ وطبيعته ، وطبيعتها .

والتصور الإسلامى لمجتمعه ينطلق من مسلمة بسيطة مؤداها أن جميع « النظم الاجتماعية فى المجتمع » لابد أن « تصطبغ » بالصبغة الإسلامية ، « صبغة الله ومَنْ أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » بحيث يصبح النظام السياسى ، والنظام الاقتصادى ، والنظام الأسرى ، والنظام القانونى والقضائى ، والنظام العسكرى ، والنظام الدينى ، والنظام الترفيهى ، والنظام الاجتماعى العام ، والنظام التربوى ذات تنظيم إسلامى . أى أن القيم ، والأخلاق ، والتصورات الإسلامية تصبح هى المعايير الأساسية التى توزن بها بنية هذه النظم : أهدافاً ، وأدواراً بشرية ، وجوانب مادية . وقوانين وتنظيمات ، وإدارة ، وغير ذلك .

إن بناء المجتمع الإسلامى فى هذا العصر يقتضى أن نجد إجابة عن

هذه الأسئلة : ما شكل النظام السياسى وبنيته ؟ وما شكل النظام الاقتصادى وبنيته ؟ وما شكل النظام الأسرى وبنيته ؟ وما شكل النظام القانونى والقضائى وبنيتهما ؟ ، وما شكل النظام الترفيهى وبنيته ؟ وما شكل النظام العسكرى وبنيته ؟ وما شكل النظام التربوى وبنيته ؟ وما شكل النظام الاجتماعى العام وبنيته ؟ وما شكل السلوك الإنسانى العام فى كل أدوار الحياة البشرية ؟ .

وهذه الإجابة التى نبحث عنها توفر كثيراً من الوضوح أمام التربية : نظاماً ، وأهدافاً ، وبنية ، وممارسة لعمليات التربية المختلفة فيها .

فالنظام السياسى يتطلب اجتهاد المفكرين الإسلاميين لكى يختاروا من الأنماط السياسية المعاصرة ما يصلح — إذا ما صيغ أو أعيد صياغته فى إطار الفكر الإسلامى — أن يتمشى مع الفكر الإسلامى .

وكذلك تحتاج جميع النظم الاجتماعية إلى هذا الجهد والاجتهاد ، لكى يجاب عن أسئلة كثيرة مؤداها : كيف نواجه متغيرات العصر بأنماط عصرية فى إطار الإسلام ، وهو الذى نزل ليواجه متطلبات الحياة فى كل عصر ومصر ؟ .

إن هذا الجهد ، وذلك الاجتهاد سوف يحددان مناهج الحياة السياسية ، والاقتصادية والأسرية ، والقانونية والقضائية ، والتشريعية ، والعسكرية ، والاجتماعية العامة ، بل الترفيهية . وسوف يساعدان على تحديد ملامح وخصائص الإنسان الذى تتطلبه هذه النظم . وبالتالى سوف يسهل على التربية أن تحدد أهدافها ، ومناهجها ، ووسائلها لكى تبنى هذا الإنسان ، وتبنى هذه النظم وفقاً للإطار الإسلامى العام .

التغيير فى اطار المفاهيم الاسلامية استراتيجية للتربية :

وأمتنا الإسلامية فى حاجة إلى تغيير . هذه إحدى المسلمات التى لا يختلف عليها الناس . وإنما قد يختلفون فى مضمون هذا التغيير ومداه ،

واتجاهه وموجهاته ، وربما يختلفون فيمن يقومون به . حيث إن التيارات التي تجوب هذه الأمة كثيرة وإن كان من الممكن حصرها والوقوف عليها .

فهناك تيارات تشدها إلى الغرب ، وتيارات تشدها إلى الشرق ، وتيارات تشدها إلى الماضي ، وتيارات تشدها إلى اتجاهات متنافرة فى نفس الوقت ... وهناك دوامات يتوه فيها كثير من الناس ، وطواحين تطحن كثيراً من الناس ، فلا يدرون من أمرهم شيئاً .

والسؤال الهام هنا : هل نحن فى حاجة إلى أن تشدنا تيارات نحو الغرب ، أو الشرق ، أو إلى الماضي أو المستقبل بدون وعى ؟ وإلى متى سنظل فى دوامات ، وفى طواحين الغرب أو الشرق أو الماضي أو المستقبل الهيولى ؟ قد نحتاج إلى أن نقتبس من الشرق أو من الغرب ، وقد نحتاج إلى أن نستفيد من الماضي ، وأن نتطلع إلى المستقبل . ولكن يظل أمامنا أمر هام ، وهو أن نجد أنفسنا ، وأن تتحقق لنا ذاتيتنا ، وأن تنضج شخصيتنا الاجتماعية بحيث نستطيع أن نمخر بها عباب المستقبل بخطىً محسوبة ومدروسة .

ونحن فى حاجتنا إلى الغرب يجب أن ندرك فقر وسطحية الثقافة الغربية . هى غنية فى الآلات ، وهذا جانب يمكن لنا أن نحصله ، خاصة إذا راعينا « القوى البشرية » فى مجتمعنا وحافظنا عليها ، وأتحنا لها فرص الاختراع ، والابتداع ، والاكتشاف . أما فقر الثقافة الغربية فهو سر تَعَسِها وتَعسِنا ، هم تعساء يعرف بعضهم أسباب تعسهم ، أما نحن فتَتَعَسنا لا نعرف أن سببه يرجع إلى استيرادنا لبعض عاداتهم وتقاليدهم ومفاهيمهم فى قضايا كثيرة من هذه الحياة ، دون أن ندرك خطورتها على صحة فكرنا وثقافتنا ، فيعتل بذلك فكرنا ، وتمرض ثقافتنا . فيصاب جسمنا الاجتماعى بالأمراض التى نلاحظها اليوم : وهى المشـــكلات الاجتماعية ، والأخلاقية ، والاقتصادية التى نعانى منها .

لقد استوردنا مفاهيم خاصة بالزواج ، والعلاقات بين الجنسين ،

ومفاهيم خاصة بمنع النسل وتأخير سن الزواج ، ومفاهيم خاطئة عن العلاقة بين الدين والعلم ، ومفاهيم خاصة بالحرب ، والقومية ، والأجناس . ومفاهيم خاصة بالحياة الاقتصادية ، والإنتاج والتوزيع ، والاستهلاك ، وبحرية المرأة ، وتعليمها ، وعملها .

وأخطر من ذلك استوردنا كثيراً من المفاهيم الخاصة « بالتربية . أو بالدعاية والإعلام » وخطورة هذه المفاهيم أنها صيغت فى إطار بعيد عن إطارنا الثقافى الإسلامى . كما أن كثيراً من أهدافها ومحتوياتها ، ومحتويات المناهج التى تصنع فى ظلالها ، والوسائل التى تبتدع فى إطارها تبتعد كثيراً عن إطارنا الثقافى هذا .

ولعل هذا الاستيراد الاجتماعى والتربوى هو المنطلق الخطير الذى مزق ثقافتنا ، ومزق وحدتنا ، ومزق شخصيتنا ، ومزق الشخصية الفردية لكل منا على حدة .

مزق الأسرة ، ومزق المدرسة ، ومزق الجامعة ، ومزق رجال الفكر والعلم ، والأدب . وبالتالى مزق كل شىء فى حياتنا ، كما فصل هذه المؤسسات الاجتماعية التربوية عن هذا الإطار الإسلامى ، فصرعتنا الصراعات ، وانتابتنا النكسات ، وأصابتنا الأزمات الأخلاقية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والأسرية .

ولسنا فى حاجة إلى أن نشرح أثر « المناهج التربوية » فى مدارسنا فى خلق المواطن ، وفى بعده عن قيمنا ، وفى تمزقه القيمى ، والثقافى ، وفى تركه فريسة منهكة القوى أمام كل الفلسفات ، والسياسات ، والاستراتيجيات التى وضعت عبر عديد من القرون للقضاء على « الإطار القيمى » وإحلال قيم أخرى محلها ، شيوعية إلحادية ، أو رأسمالية مادية ، أو صهيونية ما سونية .

ولسنا فى حاجة إلى شرح المؤثرات المختلفة التى تركتها « الصحافة » ،

ودور الإذاعة والتلفاز ، والدعاية والإعلان ، فى شبابنا من الجنسين فى أمور هامة من حياتنا الثقافية والاجتماعية • أمور تمس العقيدة ، والفكر ، والأسرة ، والحياة الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية • وإذا كان بعضها يتسم بالإيجابية فمعظمها سموم تنفث فى دم هذه الأمة ، وسوس ينخر فى عظامها ، ويفصلها عن مقوماتها الإسلامية •

إن إعادة بناء المجتمعات الإسلامية يتطلب إعادة بناء القيم ، وبناء الفكر الاجتماعى للمجتمع • وهذا يتطلب إعادة بناء التربية ، وعناصرها ، وإعادة بناء الفكر التربوى الذى يوجهها وتسترشد به فى كل جزئياتها ، وعناصرها •

وإعادة بناء التربية يتطلب أن تتشكل جميع عناصرها من أهداف ، وإعداد للمعلم ، وصياغة للمناهج ، وبناء للكتب ، وبناء للطريقة ، والوسيلة والمبنى ، وبناء للتفاعل التربوى بين المتعلمين والخبرات التربوية على أساس الفكر التربوى الإسلامى كإطار ، وفلسفة للتربية للأمة الإسلامية •

كيف توجه المناهج المدرسية فى ظل المفاهيم التربوية الاسلامية :

لعلنا نبدأ عرض هذه القضية بالسؤال الآتى : كيف تصاغ مناهج التعليم فى مراحله المختلفة بحيث تكون فى إطار الفكر التربوى الإسلامى ، على اعتبار أنه يمثل الذخيرة التى نمتلكها ونعتز ونؤمن بها ؟ إذ أنه من المستقر فى التراث التربوى المعاصر أن الأهداف التربوية والمناهج التربوية لابد أن تشتق من ثقافة المجتمع ، ومن فكره الذى يعتز به ، ويوجه حياته • فهل تشتق أهدافنا التعليمية ، ومناهجنا التربوية من الثقافة الإسلامية ؟ •

إن كل من عايش التعليم فى مدارسنا وخبره يجد أن الأهداف والمناهج التربوية لا تشتق من الثقافة الإسلامية إلا فى بعض معاهد التعليم ، وفى بعض المواد الدراسية • أما بقية التخصصات فإنهـا تعالج وكأنهـا لا صلة لها بمفاهيم الإسلام التربوية ، بل أحياناً ما تعالج تخصصات مثل

التخصصات الطبيعية والفيزيائية بخلفية مادية إلحادية تشكك أجيالنا فى الخالق الأعظم ، وبالتالى فى جميع المفاهيم الدينية التى جاءت بها الديانات السماوية • وقد أشرنا إلى ذلك من قبل •

والسؤال الذى يثار الآن هو : ما هو المحتوى الذى تفرضه المفاهيم الإسلامية على مناهج التعليم المختلفة •

وتكون الإجابة بوجه عام هى أن محتوى المناهج لابد أن يستمد من الثقافة الإسلامية ، كما تستمد أهدافها من الإطار الفكرى الذى تنسجه المفاهيم الإسلامية •

وتظل الإجابة على هذا النحو فى نطاق الإجابة العامة ، ومعالجة القضية بشكل عام • ولكن الأمر يحتاج إلى مزيد من الوضوح والتفصيل ، حتى يمكن أن يسترشد واضعو المناهج ، وصائغو الأهداف ، وواضعو الكتب ، ومبتدعو الوسائل التربوية بهذا التفصيل فى عملهم •

وهذا الإيضاح ، والتفصيل يثير لدينا كثيراً من الأسئلة فيما يتعلق بكل مقرر دراسى على حدة • فيقال مثلا : كيف تصاغ خبرات اللغات الأجنبية حتى تكون محتوياتها مشتقة من محتوى الثقافة الإسلامية ، وتكون أهدافها — إلى جانب أهداف إتقان اللغة — هى الإسهام فى تحقيق أهداف المجتمع الإسلامى •

إن منهج اللغة الإنجليزية مثلا ، أو كتبها ، يستهدف إتقان اللغة وأساليبها حديثاً وكتابة ، ولكنها إلى جانب ذلك فإنها مطالبة بأن تسهم فى بناء الإنسان قيمياً وفكرياً ، ونفسياً • وهنا يتحدد مكان الثقافة الإسلامية ودورها فى بناء الإنسان عن طريق هذه اللغة •• إن القصة التى تدرس باللغة الإنجليزية ، أو الموضوع ، أو الخبرة ، أو الكتاب يمكن أن تكون قصة إســلامية ، أو موضوعاً إســلامياً ، أو خبرة إســلامية ، أو كتاباً

يتناول موضوعات أو قصصاً إسلامياً ، بلغة أجنبية ، فيتحقق للطالب بدراسته إتقان اللغة إلى جانب بنائه قيمياً فى إطار القيم والمفاهيم الإسلامية .

وما يُقال بالنسبة للغة الإنجليزية يمكن أن يقال بالنسبة لجميع اللغات الأجنبية . وإذا صح أن يُقال ذلك ، ويقرر بالنسبة للغات الأجنبية فهو أكثر صحة بالنسبة للغة العربية . فهى لغة القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والمأثورات الإسلامية المختلفة . بل إن الرسول (ص) ، والصحابة ، والتابعين ، وتابعيهم قد صاغوا « محتوى » من القيم والعادات ، والأحكام والتقاليد ، والمخترعات الفكرية والمادية ، التى تمت فى أحضان الثقافة الإسلامية ومن خلالها .

وما ينطبق على ما سبق ذكره من تخصصات وفروع للمعرفة ينطبق على بقية التخصصات الأخرى .

فالمواد الاجتماعية يمكن أن يعاد صياغتها فى إطار الفكر الإسلامى ، والمفاهيم الإسلامية ؛ بحيث يبرز من خلالها جميع المضامين الإنسانية التى نشرها الإسلام ؛ وحارب من أجلها ، واستقرت على يديه فى واقع المجتمعات الإسلامية .

فجميع المبادىء الإنسانية ، والقيم الإنسانية والاجتماعية ، من حقوق وواجبات ، وعدالة اجتماعية ، ومساواة — يمكن أن تكون المغزى الحقيقى ، والمضامين الأساسية لجميع الدراسات الاجتماعية والإنسانية : تاريخية ، وجغرافية ، واجتماعية ، وأخلاقية .

كما أن العلوم الطبيعية هى الأخرى يمكن أن تصاغ فى ظل هذا الإطار القيمى الإسلامى .

فالفلك يمكن دراسته فى ضوء آيات الله القرآنية الكثيرة التى أشارت

إليه ونوهت به صراحة وضمناً بحقائق فلكية لهـا مغزى بالنسبة للعـالم وللوجود الطبيعى والبشرى وخالقهما .

والعلوم الطبيعية ــ كيميائية وطبيعية ورياضية ــ هى الأخرى تختلف أهدافها فى ظل الأهداف الإنسانية ، والاجتماعية الإسلامية عنها فى ظل أهداف أيديولوجيات مادية أو « حيوية » أو إلحادية .

وهذا التوجيه الإسلامى « للمناهج الدراسية » ليس بدعة ، وإنما ذلك ما يفرضه روح الإسلام ودعوته . كما أن الواقع التاريخى قد جسده فى تاريخ « العلم عند المسلمين » . فقد كانوا علماء الطبيعة ، والكيمياء ، والطب ، ومع ذلك كانوا فقهاء فى الدين وفى التشريع الإسلامى ، وفى الآداب ، والأخلاقيات الإسلامية .

وكانت هناك صـلات وارتباطات بين الدين والعـلم والفلسفة ، بالمعنى الاصطلاحى لهذه الدوائر الثلاث . وهذا ما يمكن أن تعيه ، وتدركه التربية « للأجيال المسلمة » وأن تتمثله المناهج ، والطرق ، والأهداف التربوية .

فالدين يمثل القيم ، والمعرفة الإلهية التى تمثل الإطار المتسق الذى يدور فى نطاقه كل حقائق العلوم الجزئية والعقلية .

وليس معنى ذلك أن نوجد صلات مفتعلة لكل حقائق العلوم الجزئية والعقلية بهذا الإطار الفكرى والقيمى للمفاهيم التربوية فى الإسلام . ولكن ينبغى أن نؤكد أن الصلات يجب أن تكون طبيعية . وحتى إذا لم توجد هذه الصلات والارتباطات اليوم لعجزنا عن فك كل أسرار الكون الطبيعى حتى اليوم ، فيجب أن تحرر الحقائق العلمية من كل مفاهيم تتعارض مع مفاهيم الإسلام ، وقيمه وحقائقه ؛ فوجود التعارض يثبت خطأ المفهوم الجزئى فيما يتعلق بحقائق العلوم المختلفة . وإذا لم يتيسر وضوح خطئه اليوم فسيثبت خطؤه غداً .

وبناء المناهج والوسائل والأساليب في إطار الفكر الإسلامي ووفقاً لمحتواه ومضامينه يصبح بذلك المنطلق الأساسي لتغيير الإنســـان وبنائه بناءً إسلامياً . وهذا البناء الإسلامي للإنسان يصبح هو الآخر المنطلق الأساسي لبناء المجتمع الإسلامي الجديد وتغييره في عالمنا المعاصر بكل متطلباته ومتغيراته .